اثر تجارب الأمم في بناء هويتها الوطنية

أ.م.د. أمين عباس نذير
الجامعة العراقية/كلية الآداب
م.د. أنس يونس عبد
جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات

الملخص

يكتسب هذا الموضوع اهمية كبيره ، كونه يبين العلاقة بين تاريخ الامة واهمية دراسته واثره في ترسيخ تراثها وهويتها ،وأهميته تزداد مع تفاقم اخطار التغيرات الثقافية للأمم والشعوب الاخرى التي تطال الأفكار والرؤى التي تختزلها الحضارات الإنسانية على تعدّد مشاربها وتنوّع مصادرها، والتي تتهدّد فيها الهويات بالتلاشي أو بالذوبان في الهوية الغالبة، ويتعرض فيها التراث الإنساني لحملات من التشويه والتقليل من قيمته والنيل من فعاليته في صيانة حقوق الإنسانية في التشبث بقيمها التراثية وهويتها التاريخية التي هي العمودُ الفقريُّ لخصوصياتها الروحية ومكوناتها الثقافية ولسماتها الحضارية ، فليس التراث هو الماضي فقط ، فكل ما خلفه الحكماء والمفكرون والعلماء والفقهاء والفلاسفة والشعراء والمؤرخون يعدّ تراثا فكريا وثقافيا وعلميا. وهذا التراث هو ذخيرة حية في عقولنا وقلوبنا ووجداننا فليس هو الماضي فحسب بل هو الماضي والحاضر والمستقبل معاً. إنَّ أبرز مقومات التراث العربي أنه حي بالتاريخ دون أن يفقد أصالته وتميّزه. وأن جذوره لا تزال عميقة في الأرض تنبض بالقوة. في مختلف مجالات المعرفة : اللغة. والتاريخ. والثقافة. والتشريع. والأدب. والآثار. والعقائد. والأخلاق. والحكمة. والفلسفة. والعلوم. وبناءاً على هذا فإن الاعتزاز بالتاريخ باعتباره عنوان الهوية. والمحافظة عليه مسؤولية ورسالة وواجب. وإن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ما ورثوه عن أسلافهم من تراث فلا تكون له جذور تاريخية وتراث يعتزُّ به. ولذلك فإن التأكيد على أهمية التشبث بالهوية والاعتزاز بها. ضرورة للحفاظ على الحقوق التاريخية المشروعة المتوارثة للأمم والشعوب. جيلاً بعد جيل.

Apstract

The importance of this subject is important because it shows the relationship between the history of the nation and the importance of its study and its impact on the consolidation of its heritage and identity, and its importance increases with the dangers of cultural changes of nations and other peoples that affect the ideas and visions of human civilizations. In which the human heritage is exposed to campaigns of distortion, devaluation and deception of its effectiveness in safeguarding the human rights of clinging to Heritage and historical identity, which is the backbone of its spiritual and cultural components and cultural symbols, heritage is not only the past, everything left behind wise men, thinkers, scientists, philosophers, philosophers, poets and historians is an intellectual, cultural and scientific heritage. This legacy is a living ammunition in our minds, hearts and minds. It is not only the past but the past, the present and the future together. The most important elements of the Arab heritage is that it lives in history without losing its originality and distinction. And that its roots are still deep in the ground and spring with force. In various fields of knowledge: language. History. And culture. And legislation. And literature. And effects. And beliefs. And ethics. And wisdom. And philosophy. And science. Based on this, pride in history as the title of identity. And to preserve it as a responsibility, a mission and a duty. The greatest crimes are the cruelty that people will destroy what they inherited from their ancestors from a heritage that has no historical roots and a proud heritage. It is therefore important to emphasize the importance of adhering to identity and pride. The need to preserve the legitimate historical rights of nations and peoples. Generation after generation.

المقدمة

تعد قضية التراث والهوية الوطنية واحدة من أهم الإشكالات في فكرنا العربي المعاصر، كونهما يمثلان المرجع والخصوصية، هذه الثنائية التي طالما أرّقت الآخر، محاولاً بشتى الوسائل طمسها وطمس كل ما يمت بصلة للحضارة العربية والاسلامية التي أرست قواعدها على أرض هذا الوطن. ولأنّ التراث هو

الإرث الذي خلفه أسلافنا والذي تتحدد من خلاله معالم هويتنا، فإنه يستدعي منا أن نبحث في العلاقة بين التراث كمكوّن مادي أو معنوي، وبين الهوية كوعي بهذه المكونات.

هذه الهوية التي أصبحت اليوم مهدّدة بفعل ما يسمى بالعولمة الكاسحة للخصوصيات الثقافية والاجتماعية لمختلف الحضارات، والساعية لأن تجعل العالم كله في بوتقة واحدة، وتحت هوية واحدة تتماشى والهوية الغربية.

ومن خلال هذا البحث البسيط سنحاول أن نفتح الباب على عدة تساؤلات: ما هو التراث؟ ما هي الهوية؟ ماهية العلاقة بين التراث والهوية؟ وكيف يسهم الموروث التاريخي في الحفاظ على الهوية الوطنية؟ وماهي التحديات التي تواجه الهوية الوطنية في زمن العولمة ؟

ومن أجل بلوغ هذه الغايات قسمت بحثي إلى قسمين رئيسيين: تناول الاول **الهوية الوطنية والموروث التاريخي:** حاولت التطرق فيه إلى تبيان العلاقة التي تجمع بين التراث التاريخي للوطن وللأمة، وبين الهوية الوطنية الواعية بهذا التراث. وجاء الثاني ليبين **الهوية الوطنية وتحديات العولمة** ، حاولت فيه إظهار حالة العالم اليوم، في ظل العولمة. وباعتبارنا جزء من هذا العالم سنحاول التطرق إلى حالة الهوية الوطنية والخطر الذي يهددها. وختمت بحثي بخاتمة: تطرقت فيها لأهم النتائج المستخلصة، محاولا تقديم بعض الحلول من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية وإرساء دعائمها في ظل المتغيرات التي يفرضها العالم من حولنا.

أولاً: الهوية الوطنية والموروث التاريخي:

قبل الدخول في كنه هذا الموضوع، الذي يتسم بتعدد المفاهيم ومرونتها، ارتأيت أن أقف عند مفهوم التراث والهوية، ومحاولة البحث في دلالاتهما ومعانيهما، من أجل كشف الحجب الدلالية عنهما، ومحاولة الربط بين هاته المفاهيم، والبحث عن العلاقة الجدلية بينهما.

"التراث" في اللغة العربية مأخوذ من جذر "ورث"، وهي تدل في مجملها على معاني البقاء، وانتقال الملكية، والنسب. ففي معجم لسان العرب نجد "ورث: الوارث: صفة من صفات الله عز وجل، وهو الباقي الدائم الذي يرث الخلائق ويقال: ورثت فلاناً من فلان أي جعلت ميراثه له[١]

فالتراث من خلال هذه المعاجم هو ما يخلِّفه الميت لورثته من تركة، سواء أكانت تلك التركة مادية ﴿**وتأكلون التراث أكلاً لماً**﴾ (الفجر: 9). أو أن يكون هذا التراث معنوياً ﴿**يرثني ويرث من آل يعقوب**﴾ (مريم: 6) ويقصد بالتراث هنا تركة النبوة والفضيلة والمعرفة. و من هنا نستنتج أنّ التراث يعني انتقال الملكية (مادية/معنوية) من شخص إلى آخر [٢]، وهو بهذا يحمل معاني الاتصال والربط والاستمرار. فهو "خلاصة ما تُخلفه الأجيال السالفة للأجيال اللاحقة، أو ما يُخلفه الأجداد كي ينهل منه الأحفاد، ويُضيف إليه جيل بعد جيل من خبرات حياته"[٣]

وتأسيساً على ما تقدم يمكن أن نعرف التراث بأنه "**هو الموروث التاريخي والثقافي والاجتماعي والمادي، المكتوب والشفوي، الرسمي والشعبي، اللغوي وغير اللغوي، الذي وصل إلينا من الماضي البعيد والقريب. وهذا التعريف يحاول أن يراعي الشمولية في تحديد التراث، فهو يضم مقومات التراث جميعها، الثقافية منها مثل: علم الأدب والتاريخ واللغة والدين والجغرافية، والعوامل الاجتماعية مثل: الأخلاق والعادات والتقاليد، ومن ثم العناصر المادية: كالعمران، وأخيرا ما يتضمنه من تراث شعبي يتمثل في المكتوب والشفوي واللغوي وغير اللغوي**[٤].

مفهوم الهوية:

يعتبر مفهوم الهوية واحداً من أكثر المفاهيم المطروحة جدلاً وإثارة للنقاش نظير ما يحتويه من دلالات فكرية و سياسية، واجتماعية، تمس عمق المجتمع، وجوهره. وعند البحث في أغلب المعاجم العربية القديمة لم نجد

---

(١) ابن منظور لسان العرب تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب – محمد الصادق العبيدي. دار احياء الراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي. بيروت لبنان. ط3 . الجزء الخامس عشر (باب الواو). ص266

(٢) علي بن هادية، القاموس الجديد، المؤسسة الوطني للكتاب، الجزائر ،ط/6، 1991، ص29.

(٣) مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط/4، 2004، ص 1024

(٤) علي عفيفي علي غازي ، التراث المادي والتراث المعنوي، جريدة الحياة، العدد /165

تعريفاً للهُوية، لأنّ كلمة الهوية هي مصطلح حديث منسوبة الى (هو) تحديداً، هي كلمة دالة على التمايز أو السمات في أمة دون غيرها من الأمم[٥].

"وفي المعجم الوجيز: الهوية تعني الذات، والدلالة الذاتية للهوية تعني الإحساس بالانتماء إلى منظومة راسخة تعطي للفرد خصائص متفردة [٦] .أما في معجم الوسيط فـ "الهُوِيَّةُ" هي "حقيقة الشّيء، أو الشّخص الّتي تميّزه عن غيره، وهي أيضا بطاقة يُثبت فيها اسم الشّخص، وجنسيته، ومولده، وعمله، وتسمّى البطاقة الشّخصية هوية أيضا"[٧].

ومن هنا نستنتج أن الهُوية هي كلمة حديثة في اللغة العربية، وهي اسم مصاغ انطلاقاً من الضمير المنفصل « هو» لتحدد بذلك السمات المميزة للأنا مقابل الآخر "هو"، فهي "الشفرة" الّتي يمكن الفرد عن طريقها أن يَعرف نفسه، في علاقته بالجماعة الاجتماعيّة والثقافيّة الّتي ينتمي إليها، وعن طريقها يُتعرَّف عليه باعتباره منتمياً إلى تلك الجماعة" [٨]. ومن هنا نستطيع القول أنّ الهويّة عبارة عن مجموعة من الصفات المميزة و المتكاملة، والمتفاعلة فيما بينها لتعطي لشخص أو شعب معين، أو أمة معينة مميزات يعرف بها[٩].

وتنقسم الهوية إلى نوعين:

هوية فردية: وهي التي تمثل المميزات والخصائص الجسدية التي تميز الإنسان من حيث كونه فرداً عن بقية الأفراد سواء داخل مجتمعه أو خارجه ولعل أبرز مثال على ذلك بصمات الأصابع، وخصائص الحمض النووي.

---

(٥) محمد رياض وتار ، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002 ، ص 87.

(٦) أمين نايف حسين ، مقال عن الهوية والتراث، نادي الحصن الثقافي، 2003.

(٧) هويدا صلاح الدين عتباني، الهوية والتعدد الاثني ، مجلة مركز التنوير المعرفي، العدد9، 2010،ص10.

(٨) المعجم الوسيط ، المصدر السابق، ص99؛ ابن منظور الأنصاري ، المصدر السابق ج 6 ، ص 26

(٩) محمد رياض وتار ، المصدر السابق ، ص 89.

هوية وطنية أو قومية: وهي جملة الصفات والخصائص التي تطبع أمة من الأمم يشترك فيها مجموع الأفراد المكونون لها، فيتعرفون على بعضهم البعض من خلال هذه الصفات ويتميزون بها كذلك عن غيرهم من أفراد الأمم الأخرى"[١٠].

علاقة الهوية بالتراث:

من خلال التعرض للمفاهيم الدلالية لكل من الهوية والتراث فإن البحث في العلاقة بينهما هو بحث بين الخصوصية والمرجع، هذه الخصوصية التي تعبر عن هويتنا لم تنشأ من فراغ، وإنما هي نتاج تجربة بأفراحها وأتراحها عاشتها المجموعة، و اشتركت أفرادها في رسم صورها، وإخراجها في حلة تعبر عن هوية الأمة وما تزخر به من موروث تاريخي، يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم من خلاله مستقبلها[١١].

فالتراث ما هو إلاّ صورة حقيقية لماضي الأمة، وديوان مفاخرها وذكرياتها، ومستودع تجاربها بنجاحاته وانكساراته، هو ما يوحدنا ويميزنا عن باقي الجماعات البشرية، فكل الذين يشتركون في تاريخ واحد يعتزون ويفخرون بمآثره هم أبناء أمة واحدة، وشعب واحد، وهوية واحدة. ومن ثمّ فإنّ الهوية هي نتاج لحركية التاريخ في المجتمع، تتغير وتتبدل وتتطور حسب الوعي الجمعي للشعوب بهذا التاريخ [١٢]. ونستطيع القول أنّ حجر الأساس في عملية التقدم الاجتماعي والحضاري لأيّة أمّة من الأمم مرهون بمدى وعيها بتاريخها وبتراثها الذي يمثل تجارب انسانية جاهزة، ورثتها عن أسلافها تنطلق منها نحو المستقبل، لأنّ... المستقبل ما هو إلاّ الماضي، مرورًا بالحاضر، والوجودُ الشّخصي هو ثمرة لخبرات الماضي وتجاربه وأحداثه [١٣]. فالتراث ليس هو الماضي بكل ما حفل به من تطورات في المجالات جميعاً، وما شهده من أحداث تعاقبت عبر العصور، ولكنه الحاضر بكل تحولاته، والمستقبل بكل احتمالاته. إنّه يمتد في حياتنا وينتقل معنا إلى المستقبل. فهو جزء منا لا نستطيع الفكاك منه. و بذلك يصبح سمةٌ أصيلة من سمات الهوية، به تكتمل عناصرها وبصبغته تصطبغ. فهو يمثل التجربة الفعلية للآباء والأجداد وما خلفوه لنا من علمٍ وفكرٍ وحكمٍ

(١٠) سعاد جاب الله، الهوية الثقافية العربية ، القاهرة ، مكتبة مدبولي، 2005،ص135.
(١١) محمَّد ناصر بوحجام، ملاحظات حول تاريخنا القديم، ط2، المطبعة العربيّة، 1998م، ص40.
(١٢) عبد العزيز عثمان ، التراث والهوية، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم ،2011، ص7.
(١٣) المصدر نفسه ، ص20

وفلسفةٍ وشعرٍ وغيرها من التجارب الانسانية الجاهزة التي يجب علينا أن نعيها وأن تكون هي الأساس الذي يوحدنا، و المنطلق الذي يحفزنا في بناء المستقبل(١٤).

ومن هنا فالفصل بين التراث والهوية هو ضرب من المستحيل فلا هوية بدون تراث تستند إليه، ولا تراث إذا لم يؤسس للهوية. فالتراث والهوية عنصران متلازمان من عناصر الذات، ومكونان متكاملان من مكونات الشخصية الفردية والجماعية(١٥).

كما نجد أن الهوية في الحقيقة ما هي إلا مجموع الصفات والخصائص والمبادئ التي توارثتها الأمة عن أسلافها عبر سيرورة واعية بها وبالتاريخ الذي جسدها وبالتراث الذي بقي شاهداً على ذكرياتها.

الهوية الوطنية الواعية بالتراث:

إنّ الباحث في مجال الهوية الوطنية كان لزاماً عليه البحث في تاريخ بلدنا العراق الممتد لآلاف السنين قبل الميلاد وما تعاقب عليه من حضارات غرست فيه ثقافاتها وتركت بصماتها في هوية شعبه سلباً وإيجاباً، والاحتلالات المتعاقبة لأرضه حاولت بشتى الطرق محو هوية الشعب العراقي كاملة، وطمس معالمه التاريخية والثقافية. بيد أنّ ظهور الوعي الوطني لدى فئات الشعب حافظ على تراث وتاريخ هذه الامة، وأرست قواعدها على حب الوطن والاعتزاز به، وبالتاريخ الذي خلفه شهداؤنا الذي ضحو بالنفس والنفيس من أجل حرية البلد وكرامته، ومن أجل الحفاظ على مقوماته وركائزه الأساسية(١٦).

فرغم جَبَرُوت الاستعمار وقوته العسكرية ومخططاته الفكرية الهادفة لطمس الهوية العربية، لم يستطع النيل من هوية الشعب الذي ظل متمسّكاً بهويته وبتراثه إلى أبعد الحدود، وقاوم شتى أنواع القهر والسلب والترغيب والترهيب وسياسات الاندماج و عوامل المسخ، والتدجين التي فرضتها الدول المحتلة من أجل إخراج مجتمعنا من ثوبه الأصيل المتمثل في الاسلام والعروبة. لكن التاريخ ظل شاهداً على تمسك وتشبث المجتمع بكل مقوماته متحدياً بذلك سلطة الاستعمار، فالتاريخ يشهد على الحروب والمقاومات التي خاضها

(١٤) سعاد جاب الله، المصدر السابق ، ص 176 .
(١٥) كمال الديب ، موجز تاريخ العراق ، بغداد ، دار الفارابي ، مكتبة كتب التاريخ،2012، ص32.
(١٦) عباس العزاوي ، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ، مطبعة بغداد، 1975،ص188.

الشعب ضد المستعمر، ليس بالسيف والبارود فقط بل بالفكر عن الطريق الكتاب والمفكرين والمنظرين والصحافة ووسائل الإعلام والدروس في المساجد والمدارس والنوادي[١٧].

فالحياد عن الأصل يعتبر بمثابة موت لهوية الانسان، وأي محاولة لاقتلاعه من جذوره هو موت بالنسبة له. ومن هنا تتضح أهمية التراث التاريخي ودروره في الحفاظ على الهوية الوطنية لدى الشعوب بصفة عامة ولدى الشعب العراقي بصفة خاصة، فهو يعبر عن وجود الانسان وكينونته، لذلك نراه متشبثاً بأصوله متمسكاً بها، بالرغم من كل محاولات الاستلاب، و محاولة قلع ثقافة المجتمع من جذورها، وغرس ثقافة المستعمر مكانها، وإضفاء الطابع الغربي الأوروبي ليحل محل التقاليد والأعراف التراثية العربية الاصيلة، وذلك من خلال تسخير كل الوسائل، لتغيير الهوية العربية وضربها في الصميم، ولعل الجهود التي بذلت في منطقة مختلفة كانت أحسن مثال على استهداف الهوية الوطنية، إذ نجد المستعمر قد استغل عامل العرق والطائفة واللهجات لضرب الهوية الوطنية في الصميم. إذ عمد إلى تدمير المساجد وهدم الزوايا[١٨].

بالرغم من كل محاولات التشويه وطمس الهوية الوطنية والتعدي على الموروث التاريخي للأمة، إلاّ أننا نجد هذا الأخير مازال ماثلاً في نفوس العراقيين لحد الساعة، من خلال المحافظة على لغتهم ودينهم وثقافة أجدادهم من فولكلور، وشعر، وأغاني، وموسيقى شعبية، وحكايات، وصناعات تقليدية مختلفة، والاعتزاز بتقاليدهم مثل الحفاظ على اللباس التقليدي والنمط العمراني وطريقة تشييد المباني وتنوّع الأكلات التقليدية وغيرها من العادات التي توارثناها جيل بعد جيل[١٩].

إنّ التاريخ المشترك لهذه الأمة هو ما كرّس هوية وطنية ببعدها الإسلامي و العربي ، وهو الضامن الأساسي للحفاظ على هذه المقومات، فالتراث بكل ما يحمله من قيم أخلاقية وفكرية متوارثة يعتبر هو الحجر الأساس في بناء أي مجتمع باعتباره البوتقة التي تتشكل فيها عقلية المجتمع وتصورات الجماهير وقيمها ومثلها وعاداتها، وهو ركيزة أساسية من ركائز هوية الأمة الثقافية، ودعامة رئيسية من دعائمها والضامن على ارساء مقوماتها واستمرار تواجدها، لما يمثله من اعتزاز وافتخار بماضي الأجداد، ومحاولة الاقتداء

---

(١٧) مصطفى عوفي ، الهوية الوطنية في ظل تكنولوجيا الاعلام والاتصال الحديثة، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة بسكرة ، العدد،4 كانون اول 2012، ص16

(١٨)المصدر نفسه ، ص17

(١٩) تشارلز تريب صفحات من تاريخ العراق، الترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، بيروت 2006،ص134.

والسير على هديهم في هذه الحياة، فيكون بذلك هو الدعامة الأساسية من السلف إلى الخلف ويكون نبراس يهتدوا به من الضياع والتيه[٢٠].

ثانياً: الهوية والوطنية وتحديات العولمة :

إنّ هويتَنا هي عنوانُ أمتِنا ومصدرُ تميّزِنا عن الأمم والشعوب الاخرى، وهي مبعث فخر واعتزاز لنا، وللأجيال التي تأتي من بعدنا. وقد حاولنا أن نبين أهميةَ التراث ودورِه في بناء هذه الهوية وإرساء دعائمها، كونه يمثل الحصانة الواقية لنا من المؤثرات الخارجية وما أكثرها اليوم[٢١].

والمتتبع لقضايا الهوية الوطنية يدرك دون عناء أنها أصبحت متشرذمة ، ومضطربة، بفعل ما يسمى بالعولمة .، حيث يجد جيل اليومِ نفسه منشطراً بين الانتماء لتاريخ طالما أعتز به وافتخر، وبين عالم افتراضي وجد ضالته فيه، فتغلغل في نفسه، وسيطر على أفكاره، ومبادئه، يحاول أن يوجهه الوجهة الأخرى، ويبعده قدر المستطاع عن هويته الأصلية[٢٢].

وقبل الدخول في كنه الموضوع سنحاول أن نتطرق إلى مفهوم العولمة وأبعادها

العولمة:

كلمة مترجمة من (Globalization) الانجليزية بمعنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل، فهو إذاً مصطلح يعني جعل العالم عالماً موحداً، موجهاً توجيهاً واحداً في إطار حضارة واحدة، ولذلك قد تسمى الكونية . أي: اكساب الشيء طابع العالمية [٢٣]. وفي اللغة العربية هي لفظة مشتقة من العالم والعالمية والتعولُم، ويقال فوعل الشيء، أي جعل له فاعلية وتأثيراً. ومن هنا يمكننا القول بأنّ العولمة إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني: تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة، وجعله يشمل الجميع أي العالم كله .ويصطبغ بصبغة واحدة شاملة للجميع ، والباحث في مجال العولمة يجد أن هذا

(٢٠) شريف كنعانة ، دراسات في الثقافة والتراث والهوية، فلسطين ، رام الله ،2011، ص79.
(٢١) ياسر عبد الجواد، مقاربتان عربيتان للعولمة، المستقبل العربي، عدد252، شباط 2000، ص2
(٢٢) المصدر نفسه ،ص5
(٢٣) جمال نصر الطيب ، العولمة مفهومها، و أسبابها ، المؤتمر الأول ، جامعة الزرقاء، 2002 ،ص329

المصطلح ظهر في بادئ الأمر في مجال الاقتصاد والتجارة الدولية، إذ نجده مستعملاً بغزارة في الدراسات الاقتصادية، ثم أخذ يجري الحديث عنها بوصفها عالماً متجاوراً يتعدى الجانب الاقتصادي ليشمل جميع النواحي والمجالات الاجتماعيّة، والسياسية، والفكريّة، والثقافية[٢٤].

ومن خلال البحث عن تعاريف اصطلاحية للعولمة نجد أن العولمة هي دمج ودمقرطة ثقافات العالم، واقتصادياته وبنياته التحتية، من خلال الاستثمارات الدولية، وتنمية تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، وتأثير قوى السوق الحرة على الاقتصاديات المحلية والإقليمية والعالمية، وهناك من يرى أن العولمة هي إقحام الجميع في دخول ترس الآلة العالمية بسبب الثورة الجامحة للمعلوماتية وتطور تقنية الاتصالات، وبذلك يكون مصير الإنسانية مُوَحَّدا . لا مجال فيه للاختلاف والتنوع[٢٥].

إنّ العالم اليوم أصبح يزدحم بالعديد من الأحداث والمستجدات، التي تكون في مجملِها نتاج لصراع بين حضارات وهويات مختلفة، خصوصاً بين الشرق والغرب، أو إن صح التعبير بين الغرب والعالم العربي، هذا الصراع القديم الحديث، الذي لم يسبق للعالم أن شهده بصورته الحالية، وبوسائله وأسلحته الفتاكة، الضاربة في صميم عمق المجتمعات العربية والاسلامية وهويتها. فبعد تهاوي الحدود بين الداخل والخارج من جراء ثورة الاتصالات والمعلومات، وبعد أن تحققت الهيمنة الغربية السياسية والعسكرية ثم الاقتصادية، لم يتبقَّ إلا اكتمال الهيمنة على الصعيد الثقافي [٢٦]. ولذا فلا عجب أن تكون الحربُ حربًا ثقافية تحت ما يسمى بالعولمة، تهدف إلى اكتساح الخصوصيات الثقافية والاجتماعية للمجتمعات، وطمس هوياتها القومية والوطنية، وعدم السماح لأي أمة أن تتميز بدينها، وهويتها، وقيمها، تميّزًا يتعارض مع متطلبات العولمة، وما تبحث عنه من قدر مشترك بين الشعوب والحضارات، يتلاءم مع نتاج الحضارة الغربية[٢٧].

ومن أجل بلوغ تلك الغايات كان لزاماً على الغرب تجنيد كل الوسائل المادية والبشرية، من أجل التحكم والسيطرة على مقومات الأمة، وطمس هويتها. وبعدما فشلت كل الحروب الصليبية، والاستعمارية في

---

(٢٤) عبد العزيز عثمان ، المصدر السابق ، ص 42

(٢٥) محمد عابد الجابري، العولمة و الهوية الثقافية ، ندوة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997 ص 297

(٢٦) نادية محمود مصطفى، حوار صراع الحضارات، إشكالية العلاقة بين السياسي– الثقافي في خطابات عربية وإسلامية، مركز الحضارة للدراسات السياسية ، جامعة القاهرة، 2011،ص144

(٢٧) مصطفى عوفي ، المصدر السابق، ص16

ذلك، كان سلاح تكنولوجيا الاتصالات، أنسب سلاح للوصول إلى المبتغى، إذ أصبح العالم يشهد ثورة تكنولوجية عارمة، لا قِبل للإنسان بمواجهتها، تشتمل على الأنترنت، والهواتف النقالة الذكية، والحواسب المكتبية والمحمولة، إلى غير ذلك من تقنيات الاتصال الحديثة، التي ألغت كل الحجب والحواجز بين الشعوب والثقافات، مسقطة طبائع العزلة، فدخلت البيوت، وسيطرت على العقول، وسكنت النفوس، مجسدة بذلك ملامح العولمة الغربية، التي تلعب ببراعة على حبل التقدم التكنولوجي، وتعاظم دور المعلوماتية، وذلك كله من أجل ضرب الهويات الوطنية والقومية للشعوب، ونزع الارتباط الوثيق لمفهوم الوطن المتصل بالأرض، فلم يعد التفاعل على أرض واحدة هو الباعث الأول للتجمع، بل أصبح يتم عبر التكنولوجيا ووسائط الاتصال والمعلومات . ليلغى بذلك عامل الأرض والوطن والتراث، المشكلون للهوية الوطنية، ويفتح المجال أمام هويات أخرى دخيلة تهدد الهوية الأم. حيث عملت تكنولوجيا الاتصال الحديثة على إعادة رسم الحدود والخرائط السياسية والثقافية، وأفرزت ثقافة متخطية للحدود، عرفت في ظلها الهويات الوطنية أعتى أخطار الاندثار، وذلك بالنظر إلى أن التكنولوجيا الحديثة قادرة على فصل المكان عن الهوية، واقتحام الحدود الثقافية والسياسية وإضعاف الشعور بالانتماء المحلي والوطني، وتعمل على تقويضه، وإنتاج هويات غير متعلقة بالحيز المكاني، وهويات تشعر بانتمائها ولو رمزياً إلى ذلك الفضاء اللامحدود[٢٨].

إنّ هذه التكنولوجيا برغم ما تقدمه من عطاء وتسهيلٍ لسبل الحياة، وتطوير نظام العيش في العالم، إلا أننا لا يجب أن نغفل لما يمكن أن تسببه هذه الأخيرة من انعكاسات سلبية في شتى المجالات، سيما الاجتماعية والثقافية منها، كما أنها تسعى كذلك إلى محو وإلغاء كل الفواصل الجغرافية، وتهدد التنوع الثقافي والحضاري للمجتمعات الإنسانية الضارب في أعماق التاريخ، وقد تنتج عنها عملية إبادة شاملة للمورثات الثقافية والحضارية للأمم، خاصة الضعيفة منها، والغير محصنة فكرياً، وعقائدياً، فالمرحلة التي يجتازها العالم اليوم، أصبحت تتهدّد فيها الهويات بالتلاشي أو بالذوبان في الهوية الغازية الغالبة، ويتعرض فيها التراث الانساني لحملات من المسخ والتشويه والتقليل من قيمته والنيل من فعاليته في صيانة حقوق المجتمعات الانسانية، في التشبث بقيمتها التراثية وهوياتها التاريخية التي هي العمودُ الفقريُّ لخصوصيتها الروحية ولمكوناتها الثقافية ولسماتها الحضارية[٢٩].

([٢٨])محمود زكي ، التراث العربي هوية الماضي وزاد المستقبل ، مقالة ، 2009،ص122

([٢٩]) المصدر نفسه ،ص123

والمجتمع العراقي باعتباره جزءًا من هذا العالم ، يتأثر مثلُه مثل بقية المجتمعات المستهلكة، المستقبلة للقيم الجديدة الوافدة من وراء البحار، والتي تهدّد لا محالة الهوية الوطنية وتضربها في الصميم. فالإنسان المعاصر، لم يعد يستقي مفاهيمه وخبراته من الموروثات، ومن تجارب الأجداد وتاريخهم، بل أصبح يستند إلى تجارب جديدة تفرضها عليه التكنولوجيا ووسائطها الباهرة، التي لا قبل له بها، وأصبحت مرجعيته الدنيوية وحتى الدينية يستقيها من وسائل الإعلام، ومواقع الإنترنت، خصوصاً مواقع التواصل الاجتماعي المنتشرة بشكل رهيب ومخيف في المجتمعات، مهدّدة استقرارها ونُظم عيشها، لما تقدمه من كمٍّ هائل من المعلومات والتعليقات والتوجيهات التي قد تعارض و البنية الاجتماعية للمجتمع[٣٠].

كل هذا يحدث في غياب تأثير وسائل إعلامنا على مختلف أنواعها، وعدم قدرتها على مواكبة متطلبات الشباب، ورغباته، وميوله النفسية والثقافية. فالعالم العربي بصفة عامة والعراقي بصفة خاصة، هو بعيد كل البعد عن تكنولوجيا الاتصالات . الحديثة، والدور الوحيد المنوط به في هذه الشبكة هو دور المستقبل المتلقي، الفاتح لشيفراته دون أي إرسال أو تأثير في الغير. فحجم القنوات الفضائية وتطبيقات الهواتف الذكية وصفحات الانترنيت العربية، ضئيل جداً مقارنة باللغات الأخرى إذ لا يمثل حضور اللغة العربية في الانترنيت سوى 0.89% بالمائة من مجموع اللغات التي يستخدمها العارفون بالتعامل مع الشبكة ليبقى العرب بعيدين كل البعد عن الدخول الفعلي في ترس هذه التكنولوجيا العالمية، التي أصبحت جد مهمة في حياة الإنسان المعاصر[٣١].

إنّ العالم اليوم هو عالم مفتوح على مصراعيه لا مجال فيه للرقابة ولا للسيطرة، (سواء رقابة الدولة أو رقابة المجتمع أو حتى الرقابة العائلية) فهذه الوسائل أصبحت متاحة للجميع، تستطيع أن تصل إلى جميع بقاع الأرض، مخترقة حدود الأوطان، متحدية كل الأزمان، مرسلة شظاياها في كل مكان، مؤسسة لقواسم جديدة مشتركة، بعيدة كل البعد عن الموروثات الثقافية، وعن القيم الحضارية التي عرفتها الشعوب في إطار

(٣٠) أشرف صالح محمد ، التراث الحضاري في الوطن العربي أسباب الدمار والتلف وطرق الحفاظ ، 2009 ،ص22

(٣١) عبد الباقي إبراهيم، التراث الحضاري في المدينة العربية المعاصرة.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، ١٩٦٨.ص74

حيزها المكاني الضيّق المحدود، ومصمّمة لقوالب جديدة من التفكير، ونسق جديد من القيم والسلوكيات، وحتى للغة جديدة تتماشى وسرعة الاتصالات[٣٢].

وفي خضم هذا المناخ الدوليّ غير المستقر، وتعاظم دور تكنولوجيا الإعلام والاتصال التي أصبحت اليوم تهدّد المجتمعات الانسانية في خصوصياتها الثقافية والحضارية، وفي أمنها الفكري والعقائدي، وفي هويتها الوطنية وثقافتها القومية، وفي تراثها الحضاري ، يستدعي منا التخطيط وإعادة النظر في سبل الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية، وتحصينها من كل القنوات الدخيلة التي تصب في عقول شباب اليوم، جارفةً معها كل ما تجده من أفكار و قيم وعادات، حاول التراث على مرّ التاريخ أن يحافظ عليها و يرسى دعائمها[٣٣].

الخاتمة

(٣٢)أحمد إبراهيم عطية، حماية وصيانة التراث الأثري.– القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣،ص166

(٣٣) المصدر نفسه ،ص 168

إنّ موضوع الهوية الوطنية أكبر من أن تلمّ به هذه الدراسة المتواضعة وتسديه حقه أو تقدم حلولاً لإشكالاته، لكننا سنحاول في ختام هذا البحث أن نلخص إشكالاتها الآنية وأن نقترح حلولاً، علّها تكون مفتاحا للحفاظ على الهوية الوطنية، وإرسائها في ظل العولمة ..

يشهد مجتمعنا كبقية المجتمعات في هذا العصر انفتاحا على الآخرين لا يمكن للدولة أن تحد منه، ويبقى دورها الأساسي في هذا الحول إعداد مواطنيها والأجيال الصاعدة على أن يكونوا فاعلين في هذه المرحلة بما تزودهم به من فرص تنمية مهارات الاتصال والتفكير والانتقاء الجيد من الموروث الثقافي الوطني قصد دمج الصور الايجابية تجاه الفضاء الذي ينتمون إليه.

إن الهوية الوطنية لم تعرف تشرذماً وتشظياً –خصوصاً عند الشباب– كما تعرفه اليوم، وذلك بسبب تلاشي مفهوم وحدة الأرض والمجتمع. والاندماج في عالم افتراضي جديد مبني على عدم الوحدة وتخطي كل الحدود. لذلك يجب إعادة النظر في طرق الحفاظ على المواطنة، والتمسك بمبدأ وحدة الأرض والتراث، والحفاظ على مقومات الأمة.

إن المجتمعات العربية بصفة عامة وما تعانيه من القهر والاستلاب والاستبداد، والضعف على كامل الأصعدة، جعل مجتمعاتها تبحث عن هوية جديدة تنشد إليها في الحضارة الغربية المبنية في ظاهرها على الحرية والتنوع والتطور. لذلك يجب على الحكومات العربية أن تسعى إلى توفير دولة العدل والقانون و المساواة، والرخاء.

إن عصرنا الحالي هو عصر تفتح على العالم لا مجال فيه للعزلة والانغلاق، والحل الوحيد للحفاظ على هويتنا وتراثنا ومعتقداتنا، هو تربية النشء تربية صحيحة، سليمة، مبنية على تراث الأجداد، وما خلفوه لنا من قيم وعادات وتقاليد. حتى إذا ما دخلوا ترس هذه التكنولوجيات كانت لهم الدرع الحصين والواقي.

إعادة النظر في المنظومة الثقافية من خلال تجديد خطابها ووسائلها تلقينها، تماشيا ومتطلبات التقنية للعصر، مع إبراز الجوانب التراثية المشرقة وتكريسها كعامل وحدة للمجتمع وللأمة.

بما أن العالم أصبح مفتوحا على مصراعيه يجب عدم التضييق على القوميات والأقليات، بل يجب الاعتراف بالتنوع اللغوي والثقافي والديني الموجود في الوطن، وأن نؤصل للمواطنة والانتماء، حتى لا يُفتح المجال أمام قوى أخرى وتدخلات الأجنبية.

إن الحفاظ على التراث هو حفاظ على الهوية، لذا يجب تسخير كل المستلزمات الضرورية للحفاظ على التراث الوطني (المادي–والمعنوي)، والاستفادة منه، في بلورة القيم وسلوكيات النشء، وإرساء هويته.

وفي الأخير أقول يجب علينا أن نعي جيداً زماننا، والخطر الذي أصبح يهدد كياننا، ونبحث عن حلول جذرية تتماشى والعصر الذي نعيش فيه. فنحاول أن نستفيد من هذه التقنيات ونأخذ الجوانب الإيجابية فيها، ولما لا نمتلك هذه الأسلحة (وهي متاحة للجميع) ونجعلها أسلحة بين أيدينا ننشر من خلالها ثقافتنا وتراثنا، ونكون مؤثرين في الغير لا متأثرين، غالبين لا مغلوبين.

قائمة المصادر

1. ابن منظور لسان العرب تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب – محمد الصادق العبيدي. دار احياء الراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي. بيروت لبنان. ط3 . الجزء الخامس عشر (باب الواو).

2. أحمد إبراهيم عطية، حماية وصيانة التراث الأثري.- القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣،
3. أشرف صالح محمد ، التراث الحضاري في الوطن العربي أسباب الدمار والتلف وطرق الحفاظ ، 2009 ،
4. أمين نايف حسين ، مقال عن الهوية والتراث، نادي الحصن الثقافي، 2003.
5. تشارلز تريب صفحات من تاريخ العراق، الترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، بيروت 2006،
6. جمال نصر الطيب ، العولمة مفهومها، و أسبابها ، المؤتمر الأول ، جامعة الزرقاء، 2002 ،
7. سعاد جاب الله، الهوية الثقافية العربية ، القاهرة ، مكتبة مدبولي، 2005،ص135.
8. شريف كنعانه ، دراسات في الثقافة والتراث والهوية، فلسطين ، رام الله ،2011،
9. عباس العزاوي ، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ، مطبعة بغداد، 1975،
10. عبد الباقي إبراهيم، التراث الحضاري في المدينة العربية المعاصرة.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، ١٩٦٨
11. عبد العزيز عثمان ، التراث والهوية، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم ،2011،
12. علي بن هادية، القاموس الجديد، المؤسسة الوطني للكتاب، الجزائر ،ط/6، 1991.
13. علي عفيفي علي غازي ، التراث المادي والتراث المعنوي، جريدة الحياة، العدد /165
14. كمال الديب ، موجز تاريخ العراق ، بغداد ، دار الفارابي ، مكتبة كتب التاريخ،2012،
15. مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004،
16. محمد رياض وتار ، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002 ،
17. محمد عابد الجابري، العولمة و الهوية الثقافية ، ندوة مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، 1997 ، ط2
18. محمَّد ناصر بوحجام، ملاحظات حول تاريخنا القديم، ط2، المطبعة العربيّة، 1998م،
19. محمود زكي ، التراث العربي هوية الماضي وزاد المستقبل ، مقالة ، 2009،
20. مصطفى عوفي ، الهوية الوطنية في ظل تكنولوجيا الاعلام والاتصال الحديثة، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة بسكرة ، العدد،4 كانون اول 2012،

21. نادية محمود مصطفى، حوار صراع الحضارات، إشكالية العلاقة بين السياسي– الثقافي في خطابات عربية وإسلامية، مركز الحضارة للدراسات السياسية ، جامعة القاهرة، 2011،

22. هويدا صلاح الدين عتباني، الهوية والتعدد الاثني ، مجلة مركز التنوير المعرفي، العدد 9، 2010،

23. ياسر عبد الجواد، مقاربتان عربيتان للعولمة، المستقبل العربي، عدد252، شباط 2000،